المحاضرة الثالثة:

ادوارد سعيد وجهوده في النظرية مابعد الكولونيالية (الجزء الثاني)

- **المرجعيات الفكرية لإدوارد سعيد:**

ينهض الفكر النقدي عند ادوارد سعيد على منظومة من المرتكزات المعرفية التي تدين في وجودها إلى مجموعة من الفلاسفة والمفكرين، الذين اقتنص منهم جملة المفاهيم التي صارت دعائم أساسية في مشروعه الرامي إلى تفكيك الخطاب الاستشراقي، باعتباره أداة خطابية للسيطرة والهيمنة على الشرق.

ومما تجدر الاشارة إليه ، أن ادوارد سعيد يصرح في كتابه وفي أكثر من موقع بالأفكار والمرجعيات التي يتبناها ، كما يستعملها في ثوبها الاصطلاحي الأصلي أي دون تغيير في الاستعمال الاصطلاحي لها، وهذا وما يظهر بالأساس في مجموع المفاهيم الفلسفية التي استقاها من الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو أو الايطالي أنطونيو غرامشي، بوصفهما أكثر المرجعيات حضورا في فكره ، بالاضافة إلى استعانته أيضا بفرانتز فانون ، وجوزيف كونراد، والمؤرخ فيكو، وفي مايلي تناول لأهم المرجعيات الفاعلة في مشروع إدوارد سعيد.

- **حضور ميشال فوكو في خطاب ادوارد سعيد:**

يعتبر هذا المفكر الفرنسي أهم المؤثرات الفكرية في مشروع سعيد، وذلك عبر المفاهيم التي استقاها منه في محاورته للاستشراق، وعلى رأسها **مفهوم الخطاب** ، الذي يعتبر مفهوما محوريا في فكر ميشال فوكو، بمنظور يتجاوز كونه منظومة لغويا ينتجها الفرد تستند في تحققها على المعنى الملائم أو الدلالات القابعة تحتها، ليصبح هذا الخطاب أداة سلطوية بامتياز ترتبط بالمؤسسة متجاوزة الذات، وعلاقة الخطاب بالمؤسسة السلطوية تعني امتلاك المؤسسة لآليات بناء هذا الخطاب، ومراقبة التطبيق والتحكم في كيفيات تنفيذه .

ومما يعطي الخطاب قوة أكبر في التأثير امتلاك المؤسسة لمعلومات أكبر عن الآخر ، فبهذا يمكن بناء آليات للخطاب تكون خارجة عن التاريخ ، خاضعة لآليات المؤسسة وما على التاريخ إلا التوضيح لها فحسب، وهذا ما يعكس قدرة الخطاب المؤسساتي على التكيف والظهور دوما بأثواب تبدو جديدة بالنظر إلى قوانين اللغة المشكلة لهذ الخطاب، لكنها من منظور الخطاب

المؤسساتي نفسه ليست إلا إعادة استنساخ وتكريس للمقولات السلطوية نفسها في أشكال لغوية تبدو جديدة ومخالفة ، في الوقت الذي نجدها وفية دوما لآليات انبنائها ، وخادمة في الوقت ذاته للمنظور السلطوي المؤسساتي.

يقول إدوارد سعيد: **"ما لم أتفحص الاستشراق باعتباره لونا من ألوان الخطاب فلن تتمكن مطلقا من أن نفهم المبحث البالغ الانتظام، الذي مكن الثقافة الاوروبية من تدبر أمور الشرق بل ابتداعه في مجال السياسة، وعلم الاجتماع، وفي المجالات العسكرية والإيديولوجية والعلمية .**

ويكشف هذا التصريح من ادوارد سعيد أن الاستعانة بمفهوم الخطاب في تفحص الاستشراق يعني النظر إليه كمنظومة متكاملة منتظمة تشكل خطابا يحمل بدخله مقومات المشروع الاستشراقي المتعلق بارادة الهيمنة ، وكيف توزع وشكلا هيكلا داخليا لكل مجالات الثقافة الأوربية، ومن هذا المنظور لايمكن أن ينأى مجال من مجالات ثقافة الغرب عن كونه حاملا لقانون الخطاب الاستعماري العام بين ثناياه، ولذلك وجد ادوارد سعيد هذا الخطاب باسطا أذرعه على خطابات السياسيين والعلماء والأدباء والفنانين كحقيقة يجب التسليم بها من الغرب نفسه ثم من الشرق الذي لم يعد هو إلا صورة رسمتها ريشة هذا الخطاب على نحو يهيئ له سهولة التحكم والسيطرة عليه.

يحيل مفهوم الخطاب كما يظهر عند ميشال فوكو إلى ارتباطه بنفي الحقيقة بما هي حقيقة، ويستبدله بمفهوم للحقيقة يجعلها مجرد جهاز مفاهيم يتم إنتاجه وفق منظور السلطة عبر نظام الخطاب الذي تستعمله هذه السلطة ، وهو الأمر الذي تحدث عته ميشال فوكو في مقال له بعنوان "تدبير الحقيقة" يقول فيه:

"... لكل مجتمع نظامه للحقيقة ، و "سياسته العامة " لها، وأعني أنماطا من الخطاب يتقبلها و يجعلها تعمل كخطابات صادقة ، وآليات وهيئات تمكن من التمييز بين المنطوقات الصادقة وبين الخاطئة، و الكيفية لمكافأة تلك، وتقنيات و طرق يخوّل لها الحصول على الحقيقة، ومنزلة لأولئك الذين يوكل إليهم قول ما يَعمل كحقيقة"

وبالتالي سيقود فهم الاستشراق كخطاب عند إدوارد إلى وجوب نفي كل حقيقة عن خطاباته ، ثم اعادة اعتبار هذ المفهوم للحقيقة الذي يضعه فوكو ، مما سيجعل الحقيقة الاستشراقية منظومة خطابات تفضي إلى الهيمنة، وهذه الحقيقة ستكون خاضعة لقوانين انتاج الخطاب ومؤطراته على مستوى الفهم والتجسيد ومن ثم يتأسس المفهوم الثاني الذي استقاه ادوارد سعيد عن ميشال فوكو وهو **التمثيل.**

ولقد كنا أشرنا في لمحاضرة السابقة إلى مفهوم الجغرافيا التخييلية أو شرقنة الشرق، وهما مفهومن صاغهما ادوارد سعيد لبيان أن مفهوم الشرق في خطاب الاستشراق لايستند إلى البعد الحقيقي الجغرافي ، بل إلى مجموعة من التمثيلات التي أنتجها الغرب عن الشرق في عملية ضدية لتوصيفات هذ الغرب، وبالتالي فمجموع الحقائق الناتجة عن هذه التمثيلات هي حقائق مدبرة خاضعة لقانون الخطاب الاستشراقي ، ولا علاقة لها بالشرق كوجود، ومن ثم سيكون التمثيل الثقافي بديلا عن الحقيقة ، والتمثيل -كما مر علينا - يمتلك القدرة الاقناعية ليس لامتلاكه أدوات اقناعية داخلية خاضعة لقوانين اللغة، وإنما لكونه ناشئا عن منظومة تمتلك المعرفة والسلطة ، لذا يمتلك فاعلية التجسيد دون التمكن من الإطاحة به، إلا في حال ظهور تمثيلات تكافئه أو تزيد عليه معرفة وسلطوية.

- **حضور أنطونيو غرامشي في فكر ادوارد سعيد:**

المفهوم الأساس الذي يقتبسه ادوارد سعيد من "غرامشي" هو مفهوم **الهيمنة HEGEMONY** وهو مصطلح ينبني عند واضعه على اعتبار قيام المجتمعات على مكونين أو قسمين اثنين: المجتمع المدني والمجتمع السياسي، يتشكل الأول من لمنظومة المدنية الاجتماعية بمؤسساتها المختلفة لقائمة على نو ع من التنظيم الذي يكون خاضعا للعقلانية وليس القسرية ويضم هذا المجموع أنية المجتمع كالعائلة والمدرسة والنقابات الاجتماعية العمالية ، بينما يكون المجتمع الثاني متشكلا من أجهزة تشرف عليها السلطة الحاكمة، وبالتالي سيمارس المجتمع السياسي على المجتمع المدني نظام الهيمنة.

إن مفهوم الهيمنة يحيط بالمجتمع المدني دخليا وخارجيا، فزيادة عن كون هذا المجتمع المدني خاضعا للاطار القانوني البراني المتلعق بضبط السلوكات على مستوى الفردي والجماعي وذلك بترتيب ماينجر عن سلوكات من مكافأة أو عقاب، سيكون مؤطرا داخليا بمجموعة من القناعات التي تحدد ه السلطة أيضا ، مما سيكون له أثره في ضبط القناعات الشخصية لدى الأفراد وتوجيه قناعاتهم لتتماشى مع الصورة التي ينتجها الخطاب المؤسساتي ، وسيسهل هذ أيضا انتقال هذه الصورة التمثيلية من الداخل إلى الخارج لتصبح حقيقة لايمكن ردها.

وحتى نفهم استفادة ادوارد سعيد من هذا المنظور الذي قدمناه بكثير من التبسيط وجب علينا استعمال نوع من الاسقاط على منظومة الاستشراق التي ستحل عند سعيد محل السلطة التي ستمارس مفهوم الهيمنة على مستعمراتها ، بحكم أن الاستشراق - كما مر علينا – يأخذ صفة الأداة الاستعمارية ، ولهذا سنجد أن إدوارد سعيد وفي نظره إلى الاستشراق كخطاب كولونيالي وإلى الشرق كصناعة تخييلية غربية قد استفاد من منظور الهيمنة ليقدم نوعا من التشريح لتمفصلات الخطاب الاستشراقي القائم على ثنائيات غرب/ شرق، أنا /آخر، مستعمر /مستعمر، متكلم / صامت، سيد/عبد، قائد وتابع.

ومبينا للسبل التي تم عبرها تغلغل هذا الخطاب في ثنايا الذات الشرقية التي تم إخضاعها لسلطة المعرفة الغربية ، ثم تشكيلها وفق ما يهيئ تحقيق الهدف الاستعماري الهيمني م منها، فالخطابات التي أسست وأسهمت في تشكل واكتمال صورة الشرق بمراد الغرب الاستعماري ، كانت خاضعة لقانون عام هو خطاب الاستعمار، وهي - كتمثيلات - من القناعات التي تم تشكيلها في مخيلة وقناعة الانسان الغربي قبل الانتقال إلى عملية استعمالها لتشكيل صورة الشرقي عن نفسه.

إن الشرقي الذي يأخذ حكم التابع، لا يمتلك القدرة على تقديم نفسه ولا تمثيلها، فقد أخذ في عرف الاستعمار صفة التابع الصامت الذي يجب أن يجد أحدا غيره يتحدث عنه وينوب ، وبهذا يفهم أن خطاب الأنا الغربي عمل في ما عمل عليه على إسكات صوت هذا الآخر ليكرس أهليته في تمثيله بدلا عنه، رغم أن أصوات المقاومة الثقافية تصاحب دوما خطاب الاستعمار وأفعاله ، لكن افتقارها إلى القوة قد يجعل أمر فاعليتها مرتهنا بضرورة امتلاك خطاباتها قدرا من القوة التي ستمكن لها ظهورها في صورة ما يعرف بالمقاومة الثقافية.